شاعر الثورة

رأت عيناه النور فى أرض مصر حوالى عام ١٨٤٠، وكانت بيئته وأسرته والظروف السياسية والاجتماعية كفيلة بأن تجعل منه أداة تعذب بها نفوسنا التى قهرها الطغاة والظالمون والغزاة الذين اغتصبوا حقنا فى أن نعيش أحرارًا... فهذا الطفل الصغير، الناعم البشرة، الأبيض، الوسيم الملامح، يجرى فى عروقه دم تركى ودم شركسى. واللغة العربية غريبة فى بيته واللهجة المصرية لايكاد يسمعها، فالخادم من الحبشة، ومربيته شركسية، والبواب أرناءوطى!

وقد دخل المدرسة العسكرية ليكون ضابطًا فى الجيش الذى استأثر الشراكسة والأتراك بقيادته وأعلى مناصبه... وربما راوده الأمل فى أن يصبح ذات يوم أحد أعوان الخديو فى الجيش... ولم لا؟ إنه مثل هؤلاء الضباط الأتراك والشراكسة أناقة ورشاقة وانتسابًا على نحو... إلى الترك والشراكسة...

ولقد صار ضابطًا كبيرًا ووزيرًا للحربية ورئيسًا للوزارة،

ولكنه لم يكن ـ كما ظن الحاكمون ـ عدوًا للشعب، وإنما كان واحدًا من الشعب، فإن ملامحه فقط... كانت تركية شركسية، أما روحه فإنها مصرية عربية...

كان لسانه يرطن أحيانًا بلغة الأتراك، وينطق دائمًا باللغة العربية شعرًا ونثرًا...

وكانت كل الملابسات التي أحاطت به توحي بأنه لن يكون مصريًا بتفكيره وتعبيره، فقد عرفنا أن الجو العائلي الذي تنفس فيه كان جوًا غير مصري...

ولم يكن الجو العام خيرًا من ذلك الجو الخاص... فقد كانت مصر ترزح في قيود سطوات أجنبية متعددة... سطوة المماليك، ثم الغزو الفرنسي بقيادة نابليون... ثم سيطرة الدولة العثمانية وحكم محمد علي وأسرته من بعده... وامتلاكهم مصر... أرضًا وشعبًا وثروة وعرشًا، وعندما كان محمد علي واليًا تمت ولادة محمود سامي البارودي... وقد عاصر البارودي عباسًا الأول والخديو إسماعيل والخديو توفيقًا، ومات في عام ١٩٠٤، في عصر عباس الثاني.

ولكن البارودي ـ الذي تآمرت ظروفه الخاصة وظروفه

العامة على تكوينه فى صورة خائن للشعب - وقف إلى جانب الشعب وكان بطلا، وخاض مع الزعيم العظيم أحمد عرابى معركة الحرية والشرف والحياة ضد الخديو توفيق أو ضد الإنجليز الذين استنجد بهم الخديو الخائن وغزوا بلادنا عام ١٨٨٢.

وقد دفع ثورته وبطولته عذابًا شديدًا فى المنفى سبعة عشر عامًا، فعانى فى «سرنديب» المرض والحنين إلى وطنه وأبنائه، وبكى شريكة حياته التى ماتت وهو بعيد عنها.

ولما أصيب بالعمى. سمحت الحكومة البريطانية بعودته إلى بلاده... فظل حوالى خمس سنوات قعيد بيته، وفى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٠٤ لفظ آخر أنفاسه...

وإذا كانت الظروف السياسية والاجتماعية لا تسمح لمثل البارودى أن يكون ثائرًا... فإن الظروف الثقافية ما كانت لتسمح للبارودى بأن يكون شاعرًا عربيا من طراز الشعراء الفحول.

فقد كان عصر البارودى يمثل آخر ما وصل إليه الشعر والأدب من هبوط فى الشكل والمضمون... فليس للشعر

ولا للكتابة، إلا الأسلوب السائد فى الشعر والنثر معًا والذى يعتمد على الجناس الرخيص، والتلاعب بالألفاظ والركاكة فى التعبير، والزخارف التافهة التى تشبه ألوان الحناء والهباب!

وفجأة ظهر فى مصر شاعر فحل يتحدى بجزالة لفظه ومتانة عبارته... أشهر الشعراء القدامى، فمن أين له هذا؟! إنه لم يدرس الأدب فى الأزهر، ولم يدرسه بطبيعة الحال فى المدرسة الحربية، ولكنه كان موهوبًا، وقد صقل موهبته بذاكرته القوية التى وعت عشرات الألوف من قصائد شعراء الجاهلية والإسلام، وكانت له أذن موسيقية أثرت فى صفاء الديباجة، ورنين الجملة الشعرية.

وأكثر شعر البارودى ينطوى على محاكاة قصائد من سبقوه من الشعراء، ولكن هذه المحاكاة اختفت فى عدة قصائد تجلت فيها أصالة الشعر، وتحددت فيها شخصيته الفنية...

ويرى البارودى أن خير الكلام ما ائتلفت ألفاظه وائتلفت معانيه، وكان قريب المأخذ بعيد المرمى، سليمًا من وصمة التكلف، بعيدًا عن نزوة التعسف، غنيًا عن مراجعة الفكرة. ويرى أن هذه هى صفة الشعر الجيد... وهذا الرأى يحتاج

إلى تمحيص شديد... ولكنه على كل حال... يغرى بتقدير الشاعر والإشادة بمكانته وبخاصة إذا عرفنا أن البارودى كان الجسر الذى يمر عليه الشعر العربى من مرحلة التفاهة والهبوط... إلى المراحل التى وصل إليها بعد ذلك...

وقد ذكر أستاذه الشيخ حسين المرصفى أن البارودى لم يقرأ كتابًا فى فن من فنون العربية، غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد فى طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله، وكان يستمع لبعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين... أو يقرأ وهو بحضرته، حتى تصور فى برهات يسيرة هيئات التركيب العربية، فصار يقرأ وهو لا يكاد يلحن...

ويبدو مما ذكره الأستاذ المرصفى... أن البارودى كان موهوبًا فى حفظ الشعر وفهمه ونظمه، وأنه لم يتعلم أصوله، بل لم يدرس كتابًا فى الأدب. ونحن لا نستطيع أن نستهين برأى المرصفى... فهو أستاذ البارودى، ولكن لا ينبغى أن نسلم بهذا الرأى على إطلاقه، فإن شعر البارودى ينم على تجارب ذاتية وتجارب ثقافية، ولعله اكتسب هذه التجارب الأخيرة من أساتذة غير أستاذه المرصفى. وقد أفاد ولا شك من

احتكاكه بالمصلح الثائر جمال الدين الأفغانى وتلامذته الذين كانوا يمثلون اليقظة الذهنية... التى أشعلت الثورة السياسية والثورة الفكرية... وكان البارودى قبل الثورة العربية ينظم قصائد يحض فيها على التخلص من الظلم ويهدد المالكين بزوال ملكهم يقول :

يـأيها الـظالم فى ملـكه ... أغـرك الملك الـذى ينفـذ
أصنع بنا ماشئت من قسوة ... فـالله عـدل والتـلاقى غـد

وشعره فى المنفى ينبض بالحنين إلى زوجته وبيته وبلده.. ومن شعره الرقيق وهو فى المنفى هذه القصيدة :

كيف لاأندب الشباب وقد ... أصبحت كهلا فى محنة واغتراب
أخلق الشيب جدتى وكسانى ... خلعة منه رثة الجلباب
ولوى شعر حاجبى على ... عينى حتى أطل كالهداب
لاأرى الشىء حين يسنح إلا ... كخيال.. كأننى فى ضباب
وإذا مادعيت صرت كأنى ... أسمع الصوت من وراء حجاب
لم تدع صولة الحوادث منى ... غير أشلاء همة فى ثياب

ويصف أباريق الشاى وكئوس الشاى فيقول :

فى أباريق كالطيور أشرأبت ... حذر الفتك من صياح البزاة
حانيات على الكئوس من الرأ ... فة يرضعنهن كالأمهات

ويقول متغزلا :

تركتنى من غمرات الهوى ... فى لج بحر بالردى زاخر
أسمع فى قلبى دبيب المنى ... وألمح الشبهة فى خاطرى
فتارة أهدأ من روعتى ... وتارة أفزع كالسطائر!